

الدعوة إلى إحياء العربية والدفاع عنها
دراسة في نماذج من الشعر العربي المعاصر

كهد. النوراني عبد الكريم كبور جبير*

مستخلص

تنبثق الدعوة إلى إحياء اللغة العربية والدفاع عنها عن وعي عميق بدور هذه اللغة في فهم القرآن، وتذوق بلاغته، والوقوف على جوانب من إعجازه الخالد، والحفاظ على الإرث العلمي و الأدبي والتاريخي للعرب، وربط حاضر الأمة بماضيها ومستقبلها، والحفاظ على الهوية القومية، وتعزيز الوحدة والروابط بين الشعوب العربية .

ولا يخفى على أحد ما تعرضت له هذه اللغة الكريمة من الاعتداءات والمحاولات الغاشمة لتدميرها، ومحوها من الوجود من الذين لا هم لهم إلا استلاب الشعوب، وإفراغها من حضارتها وموروثاتها؛ فتطالعنا في كل يوم بمكر جديد، والأمة متلاهية، متساهية في سكرتها عامية . وبعيدًا عن نظرية المؤامرة؛ فإن الأجيال اللاحقة من أبناء هذه الأمة أدوا أدوارًا كبيرة في إضعاف لغتهم؛ فقد وجدت الدعوة إلى اللغة العامية، وإلى اللغة الوسطى آذانًا مصغية؛ فأهملوا قواعدها، وقوانينها، وقدسيتها، وتكلموا بالعامي الساقط، بل وهجرها بعضهم إلى لغات أخرى .

و الشعر منذ أن كان ديوان العرب مازال له الريادة في الدعوة إلى الفضائل والمكارم، وبات في عصرنا الراهن يناقش قضايا الأمة ويسهم في حلها على صعيدها القومي، وظل وعاءً من أوعية الحفاظ على اللغة، وموردًا من موارد الفصحى، ومن ثم أخذ ينادي، ويدعو إلى الحفاظ على اللغة والدفاع عنها، مستعرضًا القضية بكل أبعادها؛ فقد استطاع الشعر أن يبرز لنا هذه القضية بكل صدق ووضوح، وبات يحمل همًا ثقيلًا .

* أستاذ الأدب و النقد المشارك - جامعة القصيم - كلية اللغة العربية.

وسيعرض الباحث لأربعة نماذج لأربعة من الشعراء المعاصرين الذين حملوا لواء الدفاع عن هذه اللغة، مستنهضين الهمم، واضعين أيديهم على مواطن الداء، مقدمين رؤية علمية واضحة لتلافي التدهور المريع في اللغة العربية، وهم: حافظ إبراهيم، وعلي الجارم، وعبد الله عبد الرحمن، وخليل مطران، متبعًا المنهج الاستقرائي في جمع المادة، واختيار النماذج، والمنهج الأدبي في العرض والمناقشة والاستدلال، بهدف إبراز دور الشعر في إحياء اللغة العربية، والدفاع عنها .

تمهيد: بين العامية والفصحى

إنَّ الدعوة إلى إحياء اللغة العربية، والدفاع عنها ، و مناقشة قضاياها يعدُّ مشروعًا رائدًا لإعادة تصحيح أوضاعها ؛ لتعود ناصعة كما كانت، لتؤدي دورها الرسالي بوصفها لغة دين، و ثقافة، وفكر، وعلم، وحضارة وأدب ، وبوصفها لغة عالمية مرنة قادرة على المواكبة والعطاء

واللغة العربية اليوم تعاني ضعفًا، وهنأً على وهن، تحدى بها جحافل العامية التي باتت مهددًا عظيم الخطر، ووجود العامية إلى جانب الفصحى ظاهرة عالمية في كل لغات العالم⁽¹⁾ ، ولكن لكل منها نطاق في الاستخدام، مع الأخذ في الاعتبار أن العامية لا تصلح لغة لفكر، أو علم؛ فالعامية تحدّ من مقدرة الفكر على الانتشار؛ لأنها عاجزة عن أداء الأفكار العالية، وهي تقوم على الفوضى وعلى التحلل من الضوابط والقواعد، والقوانين اللغوية، ولا تعتمد معيارًا يمكن الإمساك به، أو التحاكم إليه، وعليه لا يمكن الاعتماد عليها في مخاطبة عقل واعٍ، أو فكر مستنير، أو شعور ذكي .

و من عوامل التمكين للعامية وانتشارها ؛ الصراع اللغوي الحاد بين دعاة العامية و من يقف وراءهم ، وبين المتمسكين بها على شفا⁽²⁾.

والدعوة إلى العامية، والمناداة بها، وإقصاء الفصحى، أو كتابتها بالأحرف اللاتينية هي دعوة منزوعة اللباس، تبدو سوءات حاملة لوائها للعيان، ولن يجديهم ما خصفوه على أنفسهم من ورق المبررات الداوية المهشومة؛ فالهدف ليس تسهيل اللغة العربية، بل تفتيت الأمة، وإضعافها، ومسح هويتها والحد من الامتداد العربي وحضارته، وريادته، وحجب ثمار فكره ، وضرب العمق العربي، وتقزيم دوره في الساحة العالمية، وقد ساق دعاة العامية مسوغات هي

أوهى من خيوط العنكبوت ؛ سعوا من خلالها إلى إحلال العامية محل الفصحى في كل نواحي الحياة ، مقارنين بينها وبين الفصيحة مقارنة لا ترقى إلى أي درجة (3) ؛ فما هي إلا حرب لتدمير اللغة في عصر " صدام الحضارات " للقضاء على الإرث الحضاري للأمة، وتغييبها عن ميادين الفكر.

ومن الأمور المخجلة، والصادمة ؛ أن هذه الدعوة انخرط فيها شردمة من أبناء العربية، وهي فئة مثقفة، ومستنيرة، فكيف غاب عن وعيها أن من يتعاطى العامية لا يقوى على القراءة والكتابة، ويعجز عن الفهم، ولن يستوعب الفصحى في كافة استعمالاتها، وهذه العامية تفتقر إلى المصطلحات العلمية، وعاجزة عن مواكبة العلم والتطور، و التكنولوجيا (4).

ونحن نرفض أي دعوة لإعادة تشكيل اللغة العربية من واقع الإحلال التدريجي للعاميات، و اللهجات المحلية ؛ فالتوهان في اللهجات المحلية يؤدي بالضرورة إلى غربة اللغة الفصيحة، ومن ثم غربة الدين، والإرث .

وقد دعا المستشرقون أمثال: لويس ماسينيون، وبنيار: الفرنسيان إلى هجر اللغة العربية الفصيحة، وكتابتها بالأحرف اللاتينية (5)، ودعا المستشرق وليم وكوكس إلى إحلال العامية مكان الفصحى، و انحدر خلفه في هذه الدعوة المستشرق بارتون ويلمور (6) ، وشارك في هذه الدعوات المنكرة مجموعة من العرب المتأثرين بأفكار الغرب التي تدعو إلى العامية، وعلى رأسهم؛ قاسم أمين الذي نادى عام 1912م بترك الإعراب إلى تسكين أواخر الكلمات ، ولطفي السيد ، الذي دعا عام 1913م إلى مزج العامية بالفصحى، وأنيس فريجة، والخوري مأمون غصن الذي نادا بكتابة العربية بالأحرف اللاتينية (7)، وعبد العزيز فهدى عضو مجمع اللغة العربية الذي قدّم مشروعًا معيَّبًا عام 1944م طالب فيه بإعادة كتابة العربية بالأحرف اللاتينية تحت ستار ما أسماه "تيسير كتابة اللغة العربية" (8).

وقد دافع عن اللغة العربية نفر كريم من أبناء هذه الأمة، وبعض المستشرقين، ومن أبناء الأمة ؛ مصطفى صادق الرافعي الذي عارض دعوة لطفي السيد حول إحلال العامية محل الفصحى (9)، و عمر فروخ الذي رد على دعاة العامية مؤكِّدًا حيوية اللغة العربية و تفوقها، وأثرها في وحدة العرب وتلاحمهم (10)، وصالحاني علي الذي ردّ على الخوري مارون، وأبطل دعوته المنكرة إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية (11). ومن المستشرقين؛ يوهان فك(1894-

1974م) الذي أكد على عظمة العربية وعظمة إرثها الحضاري⁽¹²⁾، والمستشرق جون جبلي ماييه (1931-1965م) الذي يؤكد أن العربية انتشرت في كل لغات أوربا، يقول: "لم يبق لغة أوروبية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي"⁽¹³⁾، وكارل بروكلمان (1868-1956م) الذي أفاض في بيان فضل القرآن على اللغة العربية، وكيف أسهمت هذه اللغة في الوحدة العربية، وأبان مكانتها الرفيعة بين لغات العالم⁽¹⁴⁾.

وظهرت دراسات ذات قيمة، تعطي العربية مكانتها الريادية، وتدفع عنها الافتراءات في هذا الطوفان الهائج، منها؛ دراسة أنور الجندي "الفصحى لغة القرآن"⁽¹⁵⁾ وفيها يُبين فضل اللغة العربية، ودراسة مجدي البرازي "مشكلات اللغة العربية المعاصرة"⁽¹⁶⁾ التي أوضح فيها مميزات، وفضائل اللغة العربية، ودراسة محمود تيمور "مشكلات اللغة العربية" وناقش فيها العلاقة بين العامية والفصحى، رافضاً فكرة المزج بينهما، داعياً إلى الحفاظ على العربية نقية من الشوائب⁽¹⁷⁾.

والعامية لا تجد بيئة صالحة للنمو إلا حين تتفكك المجتمعات، وتتشردم الأمم، وتنغلق على ذاتها في لهجات محلية، وتنقطع صلاتها الفكرية، والثقافية وهذه الحالة وصفها الأفغاني بقوله : "هذا هو منشأ اللغات العانية، تجلي أعراضاً مرضية لا تعرفها الأمة في صحتها وقوتها، ووحدتها"⁽¹⁸⁾

على علماء العرب وضع الأسس التي تكفل للعربية النهوض من كبواتها، والعودة بها إلى موقعها الريادي في العالم، وقيادة الفكر العربي من جديد؛ فالعولمة التي نسير تحت لوائها يجب أن لا تفقدنا زمام المبادرة، وتجبرنا على خلع عباءة تراثنا اللغوي، وتجاهل لغتنا الكريمة لنسير في ركابها مسلوبي الإرادة واللغة العربية لغة غنيّة، خصبة وحيوية، ومرنة وهي تعكس التكوين النفسي للعرب؛ فهي عنوان الهوية، ورمز الوحدة، ولسان الحضارة العربية الإنسانية الزاخرة عبر تاريخها الناصع.

وقد ظلّ الشعر العربي يعبر عن الإنسان، وحاجاته منذ قديم الزمان؛ فهو ديوان العرب، وسجل حياتهم، وواكبت الدعوة الإسلامية في أخطر مراحلها، ووقف يدافع عن صاحب الدعوة، وينذود عن حياض الدين، والشعر الحديث لم يتخل عن دوره في طرح، ومناقشة القضايا التي تهّم المجتمعات المعاصرة، وانطلاقاً من هذا الدور الريادي فإن الشعر العربي

المعاصر يعيد قضية اللغة العربية إلى واجهة الأحداث، ويعرض أزمتهَا عرضًا وافيًا، ويناقشها نقاشًا علميًا مستفيضًا، ويضع الحلول المناسبة. ودولة دبي إذ تعقد هذا الملتقى الدولي للغة العربية إنما تفعل حسنًا، وهي خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح لإنقاذ اللغة، وستتبعها خطوات أخرى إن شاء الله، حتى تعيد للغتنا الحبيبة سيرتها الظاهرة، وتكفل لها أسباب النمو والارتقاء.

المبحث الأول: أزمة اللغة العربية وعوامل ضعفها

تناول الشعر العربي المعاصر أزمة اللغة العربية، والعوامل التي أدت إلى إضعافها، وانحسارها، وذلك من خلال هذه المحاور:

1/ عجز اللغة عن مواكبة العصر:

من أخطر ما واجهت العربية في عصرنا الحاضر؛ رميها بالجمود والفقر، وعدم مقدرتها على مواكبة العصر ومستجداته، وأنها لغة غير متطورة، وعاجزة عن التعبير عن حاجات الإنسان المعاصر، وقد صوّر ذلك حافظ إبراهيم⁽¹⁹⁾:

رموني بعقم في الشباب وليتني *** عقلت ولم أجزع لقول عداتي

اللغة العربية لغة في رآد الشباب، وقادرة على العطاء؛ فإذا كانت - والله الحمد والمنة - قد عبّرت عن كتاب الله العزيز بكل ما يحويه من السور المعجزة، والآيات المبهمة البلاغة؛ فكيف تعجز عن التعبير عن الحضارة الإنسانية، ومصطلحاتها، ومسميات مخترعاتها الحديثة، يقول حافظ⁽²⁰⁾:

وسعت كتاب الله لفظاً و غاية *** وما ضقت عن أي به و عطات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آله *** وتنسيق أسماء لمخترعات

هذه اللغة العريقة قادرة على مواكبة العصر؛ بما حباها الله من الخصائص، والمميزات مثل: الاشتقاق، والتوليد، والتصريف، والإعراب، وسعة الدلالات، وكثرة المترادفات؛ فلغة لها مثل هذه المقومات لا يمكن أن تندثر، والنوع البشري لولا خاصية التوالد الفني منذ أمد بعيد، وكذا اللغة العربية؛ كالكائن الحي، قابل للتطور، والتوليد مع الاحتفاظ بالنوع وخصائصه، يقول حافظ⁽²¹⁾:

ولدتُ ولما لم أجد لعرائسي *** رجالاً أكفاءً وأدت بناتي

فهذه اللغة بلا مرأ لغة حية، تسع الفكر البشري، والحياة الإنسانية في شتى مناحيها، ومن ثم فهي قادرة على استيعاب الحضارة، ومواكبة التحديث؛ فاللغة الاصطلاحية لمسميات المخترعات، والآلات، والعلوم الحديثة ليست بمعضلة أمام لغة "هي أتم الألسنة بياناً، وتمييزاً للمعاني جمعاً، وفرقاً..."⁽²²⁾، لغة واكبت الفتح الإسلامي في أصقاع الأرض⁽²³⁾، وأقبل عليها الأمم؛ يتعلمونها وهم أهل علم وحضارة ولولا مقدرتها على أداء أفكارهم، وحاجاتهم لما تهافتوا عليها.

ولغتنا العربية كانت ولا زالت حبلى بالمعاني، والاشتقاقات، وماتفتاً تنفج العالم بضروب من الفنون الإبداعية، والألفاظ، والمصطلحات؛ فهي لغة بكر، وتربة خصبة، يقول حافظ⁽²⁴⁾:

أنا البحر في أحشائه الدرّ كامنٌ * فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي**

البحر رمز العطاء الوفير، ومكمن الدرر واللآلئ، ومصدر الحياة والنماء، وهذا هو حال لغتنا العربية؛ ضروب من الفنون الأدبية، والعلمية وأنماط من الأساليب، وفيض من الألفاظ، والاشتقاقات، والقواعد والمعايير التي تحوطها وتحفظها، ويسهل لمن شاء تعلّمها، وبحر اللغة قادر على مدّ العصر وحضارته بما يناسبه، وبما يعبر عنه، وهذه دعوة صريحة لاكتشاف عظمة هذه اللغة، وسبر أغوارها للوقوف على مرونتها، وفيض عطائها.

والأدهى والأمرُّ في هذه القضية أن بعض أبناء هذه اللغة رسخ عندهم ما يروج له أعداؤها من أنها جامدة؛ لا تواكب الحضارة والتحديث، خاصة فيما يتعلق بالمصطلحات الأجنبية وما يقابلها بالعربية؛ فزعم الذين عملوا في الترجمة أنها غير وافية بمتطلبات العلم الحديث، والحياة المعاصرة، وهذه معضلة مصطنعة بلورتها المؤامرة ضد اللغة العربية، يقول علي الجارم⁽²⁵⁾:

والمحدثات تسدُّ الشمس كثرتها * ولم تفز باسمٍ ولا لقب**

والتجمات تشن الحرب لاقحة * على الفصيح فيا للويل والحرب**

نظير للفظ نستجديه من بلد * ناء وأمثاله منّا على كذب**

كمهرق الماء في صحراء حين بدا * لعينيه بارق من عارض كذب

يقول الألويسي: "وأما ما ذكر من أن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدثت بعد العرب من الفنون، والصناعات مما لم يخطر ببال الأولين فهو غير شين على العربية، إذ لا يسوغ

لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة، وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا⁽²⁶⁾، ولكن هذه اللغة حوربت بسيوف أبنائها وأعدائها .

ورمي العربية بالعجز عن مواكبة العصر لبي دعوة ساذجة من نفوس مريضة، أعماهما الحقد، والعنصرية، والتعنُّت تحت ستار التجديد، والتيسير، ولكنه تجديد فارغ، لا يقوم على الحق، يقول عبد الله عبد الرحمن⁽²⁷⁾ :

وقالوا لقد ضاقت عن العصر حاجها * وفي وجهها باب الثقافة يُوصد**

وقالوا: بأننا أنجبتنا معاهد * وأوحت إلينا: يا بني العصر جددوا**

أبناء العربية الذين درسوا في المعاهد الأجنبية عاد بعضهم يحمل حقدًا، وموغر الصدر على لغة أمته، وعقيدته وإرثه، وتاريخه، مدّعيًا أنها لا تفي بحاجة العصر وثقافته، متشدقين بلغات المعاهد التي زينت لهم هذا المسلك المشين، ولكن الشاعر يردّ عليهم ساخراً مستنكراً⁽²⁸⁾ :

وما هو تجديد فنكبر أمره * ولكن دعاوى مهمو وتزید**

وهل ينبغي التجديد إلا لعالم * له في علوم الضاد رأي مسدّد**

قضى زماناً في الدرس جاهداً * فأذعنت الفصحى لمن هو مورد**

العلماء الضالعون هم الذين يقع على عواتقهم التجديد؛ فهم يعرفون أسرار اللغة، و تاريخها، وقيمها، وما يجب أن تكون عليه، وللتجديد دواعٍ، وسبلٌ غير ما تنكب عنها هؤلاء المتعلمون .

2/ الدعوة إلى العامية :

ولعل ثالثة الأثافي في محنة هذه اللغة؛ هي العمل على إحلال العامية محلها؛ فالدعوة إلى العامية لقيت رواجًا بين أبناء العربية، وهم يجهلون ما تجرّ ذلك عليهم من هدم اللغة الفصيحة، ومن ثم يقعون فيما لا مناص منه؛ وهو التحزّب، والفرقة والشتات، ثم الضياع، يقول حافظ⁽²⁹⁾:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب * ينادي بوادي في ربيع حياتي**

ولو تزجرون الطير يوماً علمتم * بما تحته من عثرة وشتات**

الاستفهام يحمل معنى الإنكار على الاستجابة، والتعاطي مع مثل هذه الدعوات الهدامة، مع أنهم لو استطلعوا الغيب لعرفوا ما تنطوي عليها من المؤامرات الدنيئة التي تهدف إلى إضعافهم، و سلبهم إرادتهم؛ فالأزمة الحقيقية التي تعيشها اللغة اليوم هي الدعوة إلى محاربتها بسلاح العامية، و المناداة باستعمالها في الإبداع الأدبي بشتى أنواعه، وهي دعوة نجد لها صدى واسعا في مصر، وتوَلَّى كبرها فيما عد من الأدباء، كما نجد لها صدى في لبنان، وبلاد المغرب⁽³⁰⁾. وهذه أزمة حقيقية تحتاج إلى تدخل السلطات الرسمية في كل البلاد العربية لاتخاذ القرارات التي من شأنها إعادة الفصحى إلى وضعها الطبيعي، والاستعانة بذوي الاختصاص في سنّ التشريعات في هذا الصدد، يقول حافظ⁽³¹⁾ :

و أسمع للكتاب في مصر ضجة *** فأعلم أنّ الصائحين نعاتي

الضجة؛ إشارة إلى ما أثارته الدعوة إلى العامية، والفوضى اللغوية من لغط واختلاف، ولكن على كل حال فقد أيقنت اللغة العربية بالهلاك .

3/ أثر العامية في الفصحى:

العامية من الأدواء التي فتكت بلغتنا الحبيبة، وأحالتة إلى حالة من الضعف، فانحدرت إلى الحضيض على الألسنة، وبلغ بها مستخدموها أسوأ دركات الإهمال، والتحلل من قواعدها، والجهل بقديسيها وحرمتها، وما زالت تعيش فيه فسادًا وإفسادًا، بعد أن كانت عزيزة على أبنائها، معصومة مصونة عن كل ما يشينها، ويقول الجارم⁽³²⁾ :

ولم تزل في حى الإسلام في كنف *** سهل وفي عزّه في منزل خصب
حتى رمتها الليالي في فرائدها *** وخرّ سلطانها ينهار من صبيب
وعانت العجمة الحمقاء نائرة *** على ابنة البيد في جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخي إحن *** مضمخ بدماء العرب مختضب
لم يبق فيها بناء غير منتقض *** من الفصيح وشملا غير منقضب
كأنّ عدنان لم تملأ بدائعه *** مسامع الكون من ناء ومقرب
مضت بخير كنوز الأرض جائحة *** وغابت اللغة الفصحى مع الغيب

لقد تضعضع سلطان الفصحى بسبب انتشار العامية التي عاثت فيها، وجاست خلالها؛ هذه

العامية التي جاءت من دعوات الحاقدين على العروبة والإسلام، واستجابة الأغبياء من أبناء العربية؛ فحال اللغة اليوم ؛ هو الانهيار، والتشوّه، والضعف، وأهلها قيام ينظرون وكأن الأمر ليس أمرهم، وهذا لهو الخزي والعار: فكأنهم لم يسمعوا قول المتنبي⁽³³⁾:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً *** كنقص القادرين على التمام

وقد باتت العامية الساقطة تمثل تحديًا كبيرًا للغة العربية؛ فانتشرت في كل مكان؛ فنُطقت بعض الكلمات بغير مخارج حروفها، وأهمل الإعراب، والقواعد الصرفية إهمالًا تامًا، فانطلقت الاشتقاقات الشيطانية من عقالها بغير ضابط، وانهالت الألفاظ المشوّهة، والتراكيب الفاسدة، وخضعت كثير من الألفاظ للنحت المريع، والدمج غير اللائق، والنطق السقيم لمفردات اللغة؛ فأصبحت العربية الفصيحة تحمل كل هذه الشوائب، والأدران والعوالق، وباتت مريضة بهذه الطواعين؛ بعد أن كانت أصحّ اللغات وأشرفها، ولسان قوم أحاطوها بالعناية، والحب العجيب ، يقول حافظ⁽³⁴⁾ :

سرت لئنة الإفرنج فيها كما سرى *** لعاب الأفاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضمّ سبعين رقعة *** مشكّلة الألوان مختلفات

هذا هو حال اللغة بعد أن تسورت عليها العامية المحراب؛ فصارت كالثوب البالي، به العديد من الرقع الملونة من فتات أقمشة شتى ليست من نوعها؛ فبدت واهية مشوّهة.

4/ الإعراض عن العربية :

هجر كثير من أبناء العربية تعلّم لغتهم، وتعالوا عليها؛ وهي كارثة أخرى وانتكاسة كبيرة، وجامعاتنا تقف شاهدة على هذا الإعراض؛ فلم يعد الطلاب يقبلون على تعلمها، وإجادتها كما كان الحال في السابق؛ حين كان أبناء العربية يتسابقون إلى تعلمها، بل وتعلّم العلوم المرتبطة بها، وحفظ متونها ؛ فظلت حيّة يانعة في السنة أبنائها، وتورق كل حين بإذن ربها فتعطي ثمرًا مختلفًا ألوانه وطعمه، تحوطها العناية والإجلال، وكثير منهم كانوا يهاجرون في طلبها، وينقطعون إليها، يقول حافظ⁽³⁵⁾ :

أيهجرني قومي عفا الله عنهم *** إلى لغةٍ لم تتصل برواتي

فالاستفهام يفيد التقريع، والإنكار والأسف على أبناء العربية الذين يهجرون لغتهم وعنوان عزّهم جهلاً بقيمتها، وأهميتها وجلالها، ويتهافون على العامية أو غيرها من اللغات .

إنَّ أُمَّ الأَرْضِ تتقدّم فكريًّا بعنايتها بلغاتها، والتمسكُ بها والتمكين لها في الأرض، والإقبال عليها وحمايتها مما يفسدها، أمّا الأمة العربية فقد خذلوا لغتهم، وأسقطوا عن أنفسهم عناء التكلّم وفق قواعدها التي تصونها، وتحقق لها السلامة، وهجروها، وتركوا ارتياد البحث في علومها والكشف عن كنوزها، يقول مطران⁽³⁶⁾ :

ما ذا يرد من الحقيقة مسقط *** تكليفها عن نفسه بتوهم

ما ذا يريد من المعالي نائم *** والنجم مزدهر لغير النّوم

الذي يسقط قواعد لغته متوهم جاهل، والذي يدع لغته وأصالتها غافل أو متغافل، ولن يرتقي بفكره، ولن يذوق طعم المعالي، ولن يجد ريحها.

والذين هجروا لغتهم استكبارًا وعتوا إنّما عقدوا لواء الحرب على الفصحى، ولكنهم في الحقيقة أقزام، لاترقى بهم هاماتهم، وأذواقهم لتذوق اللغة : فهم طعام الناس، أقعدهم العجز عن إدراكها، واستعصى على عقولهم وعلى أحاسيسهم المتبلّدة العقيمة تذوقها؛ فأعرضوا عنها مصدرين ضجيجًا يصمّ الأذان؛ فهروا أمثالهم بأرائهم الفطيرة، الواهية المزركشة، وخيّل إليهم من سحرهم أنها تسعى، فتبعهم الغاوون، ومن يتبعون السحرة إن كانوا هم الغالبيين ، حتى إذا وقع عليهم الحق إن شاء الله عضّوا عليها الأنامل من الغيظ، وانقلبوا خاسرين، يقول الجارم⁽³⁷⁾ :

أزرى ببنت عدنان ثم حارها *** من لا يفرّق بين النبع والغرب

وراح في حملة رعناء طائشة *** يصول بالخائبين: الجهل والشغب

هكذا حوربت هذه اللغة من الفئتين الباغيتين؛ فئة الجهلاء من أبناء العربية بعظمة وقدسية لغتهم فأعرضوا عنها استصغارًا لشأنها، وفئة مثيري الشغب من الحاقدين عليها وعلى الأمة العربية، وقد لجّ أصحاب الفئتين في طغيانهم يعمهون.

5/ وضع اللغة العربية في الوقت الراهن :

إنّ وضع اللغة العربية في الوقت الراهن يزداد سوءاً؛ فانتهاك حرمتها المتمثل في تجاهل قواعدها وكثرة الأخطاء النحوية والصرفية والإملائية، هي من أشد مظاهر ضعفها، ومن المعاول الهدّامة للغة العربية، وتبدو مظاهر هذا الضعف جلية سافرة في لغة الصحافة التي

تستعمل اللغة بإهمال، وتروّج من خلالها للتحلل من قوانينها؛ فلغة الصحافة هذه الأيام مرآة تعكس الوضع المزري للغة التي جاءت مسخًا مشوّهاً، يقول حافظ⁽³⁸⁾ :

أرى كلّ يوم بالجرائد مزلقًا *** من القبر يدنيّ بغير أناة

معظم كتاب الصحف هم من غير المتخصصين في مجال اللغة العربية، وربما لا تكون لهم أدنى إلمام بالقواعد الأولية للغة، وكثير من هذه الصحف لا تخضع للتدقيق اللغوي، فانتشرت الأخطاء اللغوية القاتلة التي باتت سرطانًا يهش في جسم اللغة، ويتفاقم أمره كل حين . وهذا الوضع المزري يعود أيضًا إلى الإهمال؛ فلم تحظ هذه اللغة بالعناية مثلما كان الحال في العصور الزاهرة حين كان اللحن يُعدُّ ضلّالًا، وحين كانت العرب تسترضع أطفالها في البادية خوفًا على ألسنتهم من اللحن والفساد، وحين كانوا يفخرون بأنهم لا يلحنون في جد أو هزل ، وحين كانوا لا يولّون المناصب العليا في الدولة إلا لمن توافر فيه ضمن معايير أخرى صفة الفصاحة. وحين كانوا يتواصلون بها خيرًا؛ حينها ظلت اللغة مصونة، يعجب الناس حسنًا؛ فتهافتت عليها الشعوب وتعلموها، وبرعوا فيها، وصار بعضهم علماء، وأعلامًا فيها، أمّا اليوم فهي على ما هي عليه من الضعف، والهوان، يقول حافظ⁽³⁹⁾ :

فيا ويلكم أبلى وتبلى محاسني *** ومنكم وإن عزّ الدواء أساتي

فلا تكوني للزمان فإئني *** أخاف عليكم أن تحين وفاتي

البيتان بمثابة صرخة في واد ذي زرع تعبّر عن الإهمال والتنكّر، والإعراض عن هذه اللغة التي باتت تخشى على نفسها الاندثار، وعبارة "أخاف عليكم" تبين شفقة هذه اللغة على أبنائها؛ فهي لا تخشى على نفسها الموت، ولكنها تخشى عليهم عاقبة موتها .

المبحث الثاني: الدفاع عن اللغة

اللغة العربية أقدر اللغات على الإبانة على الإطلاق، وأقدرها على الإيضاح، وهذا وصف مطلق لا تحدّه معايير البشر، فقد وصفها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بهذه الصفة (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)⁽⁴⁰⁾ ، وقال: (لِسَانُ الَّذِي يُلْجِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)⁽⁴¹⁾، والإبانة مفهوم واسع تندرج فيه المصطلحات العلمية، ومسميات المخترعات الحديثة، وآلة الحضارة، وهي لغة قويّة بما لها من المقومات والخصائص .

والضعف الذي ألمَّ بها منشؤه ضعف الاستعمال، وفساد الألسنة، أما هي في الأصل فليست ضعيفة؛ فهي حيّة ولكن حياة كالعدم حين غُيبت عن الحياة العامة، وأقصيت عن ميادين الحياة المعاصرة، ولكن يجب أن نؤكد غير مبالين بأنها أقدر اللغات على العطاء؛ فقيمتها لا تقل لمجرد دفنها في التراب، وفي المعاجم اللغوية، ودواوين الشعراء، وكتب الحديث، ونصوص البلغاء كنوز لا تُقدَّر بثمن، ولكنها مغترية في أرضها، مطمورة في سجون كتب التراث، بعد أن عجزت عنها الألسن، وقصُر عنها الإدراك، والعجز والضعف الحقيقيان عند من يتشدّقون بضعفها و عجزها، وقد باتت هذه اللغة كالسيف في كفّ جبان، يقول الجارم⁽⁴²⁾:

أنترك العربي السمع منطقه *** إلى دخيل من الألفاظ مغترب

وفي المعاجم كنزٌ لا نفاذ له *** لمن يميز بين الدرّ والسخب

كم لفظة جهدت مما نكرها *** حتى لقد لهثت من شدّة التعب

ولفظة سُجنت في جوف مظلمة *** لم تنظر الشمس منها عين مرتقب

وهذه اللغة الحيّة لا يمكن لها أن تموت مهما ضعفت سلائق الناطقين، أو جار عليها الجائرون، تكفمها طلٌّ من لسان فصيح، أوفطرة سليمة لثورق، وتؤتي ثمرًا من كل زوج بهيج، وهذا الاستعداد فطرة فيها، يقول الجارم⁽⁴³⁾:

وسنى بأخبية الصحراء يوقظها *** وحي من الشمس أو همس من الشهب

هذه اللغة أخذت إلى النوم في خبائها الصحراوي في دلال، ولا يوقظها إلا حرارة الشمس، أو بريق الشهب المتوهجة في علاها؛ فلا يوقظها نهاق أو خوار، وهذه صورة رمزية للغة العربية التي توارت في خبائها كما كانت في عهدها الأول في انتظار شروق شمس أبنائها لتنهض من جديد

نعم، لغتنا جميلة، وساحرة، ولا مثل لها، زادها الإسلام شرفاً، والقرآن ألقاً، وهي أعظم اللغات الحيّة، وعلي الجارم يتناول هذه الناحية؛ فتأتي الأبيات صورًا ناطقة معبّرة عن هذا الجمال الساحر الأخاذ، يقول⁽⁴⁴⁾:

تكلمت سور القرآن مفصحة *** فأسكتت صخب الأرماع والقضب

وقام خير قريش وابن سادتها *** يدعو إلى الله في عزم وفي دأب

بمنطق هاشمي لو نسجت *** منه الأصائل لم تنصل ولم تغب

طابت به أنفُس الأيَّامِ وابتَهجت *** ومردَهزُّ ودَهزُّ وهي لم تَطبِ
وهزَّ الراسياتِ الشَّمَّ وارتعدت *** لهوله الباتراتُ البيضُ في القربِ
وأصبحت بنتُ عدنان بنفحته *** تمَّها تجرر من أذيالها القشبِ
فازت بركن شديدٍ غير منصدع *** من البيانِ وحبلٍ غير مضطربِ

هذه هي قصة اللغة العربية، ومسيرتها في الإسلام، وهي قصة تحكي الماضي المشرق، وتعكس روعة وجمال هذه اللغة؛ التي جاءت غرسًا طيبًا لكلام الله تعالى، ومنطق النبي (صلى الله عليه وسلم)، وبلغاء العرب من بعده؛ فطابت الدنيا بالبيان الرائق، والمنطق الأخاذ؛ ففاقت كل الجمال، و كل لمحات الحسن؛ بيان هزَّ الراسيات الشَّمَّ، ورقصت لها السيوف البواتر في أغمادها، فازدانت اللغة في مواكب الإبداع، إشراقًا، وبيانًا، ومشت مختالة تجرر أذيالها في ركاب العزّة والبهاء.

اللغة العربية لغة إعجاز، وتمكين، وليست مجرد أداة للتواصل؛ فمضمار الحضارة اليوم لم تعد قاصرة على فنون بعينها؛ فالباب واسع، وأهل الغرب بعد أن حققوا العزة للغاتهم، ومكّنوا لها، انطلقوا في مضمار الحضارة؛ فأتوا أهلهم بالمعجزات متفنين؛ فإن عزَّ على العرب مجاراتهم في ذلك فلديهم معجزة خارقة تبرّك كل معجزة، هي القرآن الكريم، وهي معجزة لغوية؛ فإذا مكّن العرب للعربية، ونشروها بعلمها، ونصوصها لساد القرآن العالم، ولطغى على كل معجزة يتقعر بها الغرب، ولقرأ الناس في دراسات القرآن وعلمه، وعلوم العربية ما يحملهم على الأقل على احترامه، والاعتراف بفضله، يقول حافظ⁽⁴⁵⁾:

أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا *** فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ويرى خليل مطران أنّ اللغة حق مكفول لكلّ أمة، أو قومية تتحدث لغة معينة؛ فهي وسيلة من وسائل التواصل، ولكنها حق، ومجد، ومجمع الحضارة، والتراث، والعلم، والأدب، ويُضاف إلى ذلك عند المسلمين أنّها لسان دين، وكتاب سماوي منزل، وانطلاقًا من هذه القاعدة فإنّ العربية لا تُنكر، ولا تُجحد، ولا تُوصف بالجمود والقصور؛ فاللغة العربية هذه قد سادت، وانتقلت إلينا كاملة فلا سبيل لإنكارها، يقول مطران⁽⁴⁶⁾:

لجاهلي لسانه ومن الذي *** ينفي من الفصحى لسانَ مُخضرم

فاللغة العربية قوة لو وُظفت في فنونها القولية، يقول (صلى الله عليه وسلم): "إنَّ من البيان لسحراً"؛ وتشبيهاً بالسحر نسبة لمقدرتها على نقل النفس من الواقع إلى عوالم من الخيال الخصب، وهذه شهادة ممن لا ينطق عن الهوى في بيان أثر هذه اللغة في النفوس؛ فتأمل .
و الإسلام قبل أن يُفرض الجهاد اعتمد على بلاغة الكلمة المنظومة في المناقحة عن نفسه، ومهاجمة خصومه؛ فالإسلام نُصر بقوة اللغة قبل قوة السيف، والجيوش الإسلامية التي اقتحمت الحصون، ودكّت معقل الشرك، وكانت تحركها الكلمة المنظومة شعراً ونثرًا؛ فاليد التي تحمل السيف لا بدَّ لها من عزيمة تشدها، وقلب الجسور في حاجة لما يليهه ويقويه.
ونذكر أنَّ قريشًا منعت الأعشى من الهجرة إلى المدينة ليعلمن إسلامه، وما ذاك إلا خوفًا من لسانه وشعره، فمعسكر الشرك كان يخشى قوة البلاغة وأثرها، وعليه فإن اللغة العربية قوة لأهلها في حوارهم، وفكرهم، وأديهم، وفي دفاعهم عن أنفسهم، يقول الجارم⁽⁴⁷⁾:

وَأَحْضُرُ الشُّعْرَاءَ أَلْسِنَ قَدْ وَقَفُوا *** وللبيان فعَال الصَّارِمِ الدَّرِبِ
أَبُو بَصِيرٍ لَهُ نَبْرٌ لَوْ أُتْخِذَتْ *** مِنْهُ السَّهَامُ لَكَانَتْ أَسْهُمَ التُّوبِ
إِذَا رَمَاهَا كَمَا يَخْتَارُ قَافِيَةً *** دَارَتْ مَعَ الْفَلَكِ الدَّوَارِ فِي قُطْبِ

الشعر كالسيف، وكالسهم، ولقوافيه أثر السلاح الفتاك في نفوس الأعداء، ولذا قال (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله بن رواحة: "و الذي نفسي بيده لكلامك أشدَّ عليهم من وقع النبل"⁽⁴⁸⁾.

المبحث الثالث: الدعوة إلى إحياء اللغة

ظلَّ الشعر العربي المعاصر يدعو إلى إحياء اللغة العربية، وبعثها من مرقدها، مناشدًا أولى الأمر، مخاطبًا العقول الواعية، مثيرًا للنخوات، ومستفيرًا للعواطف بشقى الوسائل والسبل.
1/ الدعوة الصريحة :

اللغة العربية صورة وجود الأمة، وترجمان ثمار العقول، ومطيّة التقدم، وعنوان الماضي المشرق، والشاعر عبد الله عبد الرحمن يعمّق هذه النظرة إلى العربية، وما يمكن أن تحققها للأمة إن تمسكت بها، وحافظت عليها، وهي دعوة إلى إحيائها، وإعادتها إلى الواجهة لتكون عنوانًا لأسى نهضة وحضارة، يقول⁽⁴⁹⁾:

أجل كل قوم فرطوا في لغاتهم *** غدوا و صروف الدهر فهم تحكم
أرى الغرب يعنى بلغات رجاله *** وتمشي إلى أعلامها تتعلم

وهم يكبرون من رجال توفروا *** علمها إلى أن أكبر الناس منهمو
وفي كل يوم يخرجون مؤلفًا *** نفيسًا وبحثًا ينشر الفضل عنهمو
ولا يهجرون للجديد قديمهم *** وذلك خلق عن رقي يترجم

إنّ عاقبة التفريط في اللغات بالإهمال هو الخسران المبين، والضياع الحتمي في ثقافات الآخرين، وما نهض الغرب، و ساد إلا بحفاظها على لغاتها التي حفظت لهم هوياتهم، وترجمت أفكارهم، ومواهبهم، وأبحاثهم إلى واقع ملموس يعمّ العالم، وأعظم من يجلّه الغرب، وسائر الأمم المتقدّمة؛ هم علماء اللغة، القائمين عليها؛ فتفوّق الغرب على العرب من أسبابه عدم تفريطهم في لغاتهم ، فلم يهجروها إلى غيرها بدعوى التجديد، ولم يحتقروها، وأجلّوا علماءها وأكبارهم، ولم يرموهم بالجمود، ودوّنوا بها مؤلفاتهم، ونتائج أبحاثهم. والشاعر هنا يدعو قومه إلى التمسُّك بلغتهم الكريمة، وأن يسلكوا بها سبيل الغرب، ويصنعوا صنيعهم؛ فذلكم الرباط، وما ينبغي أن يكونوا عليه.

والشاعر حافظ إبراهيم يناشد كل الأدباء، والمثقفين، وأصحاب الأمر على لسان اللغة العربية لإحياء اللغة العربية، وفرضها على شعوب الأمة العربية؛ لتعود كما كانت في السابق، يقول⁽⁵⁰⁾:

إلى معشر الكتّاب والجمع حافل *** بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فأما حياة تبعث الحياة من البلى *** وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإمّا مماتٌ لا قيامة بعده *** مات لعمري لم يُقَسن بمماتٍ

وتسابق كثير من الشعراء الكرام إلى الدعوة إلى إحياء هذه اللغة، وبعثها من جديد لتتقود مسيرة الفكر والعلوم ، والشاعر خليل مطران يدعو إلى ذلك في أسلوب بليغ فيقول⁽⁵¹⁾:

لن ترجع العربية الفصحى إلى *** ما كان منها في الزمان الأقدم
ما لم يعد ذلك الزمان وأهله *** والعاد والأخلاق حتى جرهم

عودة اللغة العربية إلى سابق عهدها من القوة، والإبانة، والسحر مرهون بعودة مناهج السابقين الأولين من العرب، وليس عودة السابقين أنفسهم، ومناهج السابقين تتمثل في المحافظة عليها، وعلى سلامتها من مجرد اللحن ناهيك عن الانحراف في استعمالها، وتتمثل كذلك في أخلاقهم التي منها العناية بسلامة المنطق التي كانت من مكملات الشخصية، وعنوان المهابة، والوقار، بل إنّ منهم من شاب رأسه خوفًا من اللحن⁽⁵²⁾، ولن تعود هذه اللغة إلى سابق

عهدنا إلا إذا أحيينا سنن أسلافنا في الحفاظ عليها، وقمنا بتطويع مناهجهم للارتقاء بها إلى آفاق رحبية.

وهذا مجال واسع؛ ولإحياء اللغة العربية مظاهر شتى، وطرق متعددة، ولكن لن تؤتي ثمارها إلا باتباع المناهج العلمية المناسبة، وبتأدية الدول، والمجامع اللغوية، ورواد النهضة دورهم. ويرى مطران أنّ اللغات الخالدة في حاجة إلى تجديد دائم لتظلّ حيّة، تنفخ العالم بما يريد، ولكن الإحياء والتجديد لا يكونان عبثًا، أو تمنيًا؛ بل هما في حاجة إلى الإرادة الصلبة، والأقدام التي لا تتضعع؛ فأمر العربية بات عظيمًا، والأخطار المحدقة بها تزداد مع الزمن، يقول⁽⁵³⁾:

إنّ التجدد للسان حياته* ومن الذي يحييه غير المقدم**

ويتفائل مطران بقيام اللغة بعد عثرتها؛ فكل وسائل إحيائها متاحة في هذا العصر الذي تقدمت فيه معينات التحديث تقدّمًا عظيمًا، ويرى أنّه عصر اللغة العربية، وسيحقق الناشطون في أمره نجاحًا كبيرًا، يقول⁽⁵⁴⁾:

في عصرنا للضاد فتح باهر* زبدت به فخراً فهل من مأثم
من فرق الأخوين يستبقان من** * طرق لرفعها أليس بمجرم؟**

و تتجلى نهضة اللغة العربية في نظم البلغاء، والشعراء؛ فهم عباقرة الكلمة الفصيحة، والتعابير الرصينة، وأثرهم عميق في خلق التفاعل مع اللغة، ودورهم عظيم في نشر اللغة الفصحى وحفظها؛ فالفرزدق، وذو الرمة، ورؤبة، والعجاج؛ تعدّ دواوينهم الشعرية أوعية للغة العربية، وغيرهم كثر، وعلي الجارم يعول على الشعراء الفصحاء في إحياء اللغة، وتحييها إلى الناس، ولذا يبتدريهم في دعوته إلى إحياء اللغة العربية، ويناشدهم بامتداحها، وبيان أهميتها، وجمال سحرها، يقول⁽⁵⁵⁾:

ماذا طحا بك يا صناجة الأدب* هلا شدوت بأمداح ابنة العرب
أطارنومك أحداثٌ وجمت لها*** فبتّ تنفخ بين الهيمّ والوصبِ
واليعربية أندی ما بعثت به*** شجواً من الحزن أو شدواً من الطرب
روح من الله أحييت كل نازعة*** من البيان وآتت كل مطلب
أزهى من الأمل البسام موقعها*** وجزسُ ألفاظها أخلى من الضربِ**

"صناجة الأدب" كناية عن الأعشى ميمون بن قيس. سعي بذلك لحسن رنين شعره، ولموهبته

الكبيرة في توظيف لغة الشعر، وقد رمز به إلى سائر شعراء العربية المجيدين يستنهضهم لإحياء العربية في نماذج من الشعر العربي الرصين، فتحيا البيان العربي الذرب الذي يخلب الألباب، وتعيد للعربية مجدها الغابر.

وقد انطلقت الأشعار في عصرنا الراهن تدوي بضرورة إحياء هذه اللغة العظيمة، وأن يقوم المستنبرون، و ذوو الاختصاص، والحادبون عليها بدورهم في حركة بعث اللغة، يقول الجارم⁽⁵⁶⁾:

يا عصابة الخير للفصحى وشيعتها *** حياك صوب الحيا يا خيرة العُصَب
هلمّ فالأوقات أنفاس لها أمد *** ولا أقول بأنّ الوقت من ذهب

هذه دعوة صريحة بالتعجيل برسم خطة لإعادة إحياء اللغة دون توان، أوتراخ، ضمن مشروع قومي كبير يستهدف تحقيق الريادة والسيادة للغة القرآن الكريم، والحديث النبوي، وتراث الأمة.

2/ بيان الماضي المشرق :

هو من وسائل استنهاض الهمم، وشحذها لأجل إحياء اللغة؛ فهذه اللغة التي أهملت وانتهكت؛ كانت لغة قوم ماعاشوا إلا لها، ولا علم لهم أصح منها، وعلى الرغم من أنهم تكلموها فطرة وسليقة إلا أنّ إحساسهم بعظمتها كان حاضرًا في كل حين؛ فهي لغة مرنة، استجابت لكل حاجات الإنسان العربي في صحرائه الواسعة، وفضائه الفسيح؛ فتكلم بها مفصّحًا، ومعبّرًا، ومغنيًا؛ فأحال سبب الحياة إلى جنّة وارقة الظلال، و ما أن خرجت من أطراف جزيرتها حتى تهافتت عليها شعوب الأرض يرتوون من فيضها العميم، ويقول الجارم⁽⁵⁷⁾:

جزيرة أجدبت في كل ناحية *** وأخصبت في نواحي الخلق والأدب
جذب به تنبت الأحلام زاكية *** إنّ الحجارة قد تنشق عن ذهب
تود كل رياض الأرض لو منحت *** أزهارها قبلة من خدّها الترب
و ترتجي الغيد لو كانت لألهمها *** نظمًا من الشعر أو نثرًا من الخطب

هذه هي الصورة الحقيقية، والمثالية للغة العربية، والتي يجب أن تعرفها الأجيال، فيمنحونها العناية، والحب، ينكبّون بحثها، ودراستها؛ فيخرجونها للعالم في ثوبها القشيب، باعتبارها لغة صالحة لكل عصر، تتجلّى فيها خصائص العالمية.

و الحنين إلى العهود الزاهرة للغة العربية بقدر ما تعبّر عن حالة من الحزن الحائر لما حاق بحاضرها من التعتُّف، والإهمال، بقدر ما تدعو إلى استنهاض الهمم باستحضار تلك الصور المشرقة، واستدعائها من الماضي السحيق ، يقول الجارم⁽⁵⁸⁾:

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه *** سقى العهود الخوالي كلّ منسكب
أشهُدُ الخلق للشورى قد اجتمعوا *** ولست أسمع من لغو ولا صخب
من كل مكتمل بالبرد مشتمل * ** للقول مرتجل للهجر مجتنب

"جيرة الحرم" كناية عن قريش، وسائر من جاورهم من العرب، يستسقي لهم الغمام، يسقي بها عهودهم الزاهية بالفصاحة والبيان؛ حين كانوا يتخاطبون بالبلاغة مرتجلين الكلام بدهاء وسليقة، لا يعرفون اللفظ الساقط، ولا العامي، ولا تجد إلى أستمهم سبيلاً، يبدعون القول محافظين على سلامة وجمال منطقتهم.

والشعراء حين يستعرضون دور السلف في الحفاظ على اللغة يهدفون إلى بيان الفارق الشاسع بين ماضيها المشرق، وحاضرها القاتم بغرض إيقاظ النفوس النائمة لإحياء العربية، وإنقاذها من براثن الفوضى، بعد أن ترك السلف من بعدهم خلف أضعوا لغتهم يرثون هذه الأدنى، يقول حافظ⁽⁵⁹⁾:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً *** يعزّ عليها أن تلين فناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته * ** لهنّ بقلب دائم الحسرات
فاخرت أهل الشرق والغرب مطرق *** حياء بتلك الأعظم النخرات

الشاعر يطلب السقيا للأعظم النخرة؛ وهم العرب الذين عاشوا في غابر الزمان، وأدّوا واجبهم تجاه لغتهم؛ فحفظوا ذمامها وحرمتها، وقدسيتها، واللغة لم يبق لها اليوم من المجد سوى ذكريات الماضي المشرق لأولئك الذين ترقد عظامهم البالية تحت ثرى الجزيرة، والهدف من الأبيات السابقة تنبيه العرب الباقية إلى دورهم تجاه لغتهم، فعليهم مواصلة ما بدأه أسلافهم في رفعة لغتهم، والحفاظ عليها.

3/ أثر اللغة في تعزيز الهوية والوحدة القومية :

اللغة العربية مظهر من مظاهر الوحدة، والانتماء، وربط من أقوى الروابط بين الأشقاء العرب؛ فاللغة رحم بين أهلها، وصدق الشاعر محمد هاشم عبد الدائم حين قال:

وكل من نطق الفصحى لكم رحم * فوحدة العرب درع المجد يحميه**

اللغة يجب أن ألا ننظر إليها باعتبارها مفردات وجمل فحسب، بل يجب أن ننظر إليها كوشيجة من أقوى وشائج القربى والأخوة، تحقق الوحدة، يقول الجارم⁽⁶⁰⁾:

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه * سقى العهود الخوالي كلُّ منسكب
لي بينكم صلة عزّت أواصرها *** * لأئها صلة القرآن و النسب**

وهو الانتساب إلى هذه اللغة الكريمة التي تحل محل الدم، والعنصر، ويكفي المرء شرف الانتساب إليها، و التحدث بها. و الشاعر عبد الله عبد الرحمن يشير إلى دور اللغة في تدعيم أواصر الوحدة العربية الإسلامية، يقول⁽⁶¹⁾:

تجمعنا الفصحى ودين نقيمه * ولا فصل نخشاه لما الله واصله

لقد ارتبطت الشعوب العربية برابطة الدين واللغة، وهي من أمتن الروابط الروحية، وهذا يحتّم علينا الحفاظ عليها، وعلى اللغة خاصة، وفي التفریط فيها فصم لعرى الوحدة، ومدخل للتفرُّق و التدابر؛ فإحياء اللغة فيها مرامٍ بعيدة منها تدعيم الوحدة العربية، وتقوية أواصر القربى بين شعوبها، يقول عبد الله عبد الرحمن⁽⁶²⁾:

تجمعنا الفصحى و تربط بيننا * أصول هي الإسلام تأبى التقاطعا

و يقول حافظ⁽⁶³⁾:

أرى لرجال الغرب عزًّا و منعة * وكم عزّ أقوام بعزّ لغات

إنَّ عزَّ الأمم القوية ومنعتها، وقوة وحدتها ليست نابعة عن قوة السلاح، و التكنولوجيا فحسب؛ بل نابعة كذلك من قوة لغاتها؛ حين اعتدّوا بها، وعملوا على نشرها، وفرضها على الآخرين؛ فسادت وشاعت، ومنها اكتسبت شعوبها القوة، والمنعة، وأحرزت قصب الريادة.

خاتمة

استطاع الشعر العربي المعاصر أن يطرح، ويناقش القضايا، والأزمات التي تعانيها اللغة العربية، والتي أفضت إلى ضعفها، وانحسارها، ومن تلك الأزمات: انتشار اللهجات العامية على حساب الفصحى، ورمي اللغة بالجمود والعقم، و عدم مقدرتها على مواكبة العصر، و تلبية حاجاته، وإعراض أبنائها عن تعلمها، وعن العناية بها، وهجرانها إلى لغات أخرى، بل و تفضيلها على العربية، وتمسُّك البعض باللهجات العامية بديلاً عن اللغة الفصيحة.

الدعوة إلى إحياء العربية والدفاع عنها

ومن تلك الأزمات: الدعوات التي نادى بها إعداء العروبة، وهي؛ كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية، واستعمال اللغة الوسطى، وإحلال العاميات محل الفصيحة بزعم أنّ الفصيحة مقيدة، تكبت الحرية، وتقتل الإبداع، وتحدّ من مقدرة الفكر على الانطلاق. وقد دافع الشعر عن اللغة، وبيّن فضلها، وحيويتها، ومرونتها، وقدرتها على المواكبة والعطاء، و تفوقها على العاميات ، وسائر اللهجات المحلية واللغات الهجينة، هي لا تُقاس بها البتة . ودعا الشعر إلى أحياء اللغة وبعثها، ورأى فيها عنوان الهوية، ورمز الوحدة، ولسان الحضارة، والإرث الإنساني الأصيل. وعليه فقد أفلح الشعر العربي المعاصر في عرض قضية إضعاف اللغة العربية عرضا واضحا، و أحسن مناقشتها بكل أبعادها، و تعقيداتها في نصوص رصينة من الشعر تعكس هي الأخرى عظمة هذه اللغة، و جمالها.

الهوامش

- 1/ فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار النهضة ، القاهرة - مصر ، (ط7) ، سنة 1972م ، ص:153، و ما بعدها
- 2/ اللهجات العربية ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة - مصر، (ط4)، سنة 1773م، ص:125.
- 3/ نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة ، دار الثقافة، بيروت - لبنان، سنة 1973م ، ص: 122 .
- 4/ تاريخ اللغة العربية في مصر، أحمد مختار، الهيئة المصرية للطباعة ، القاهرة - مصر، سنة 1970م ، ص: 20.
- 5/ الفصحى لغة القرآن، أنور المجدي دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، سنة 1982م ، ص:188.
- 6/ نحو لغة عربية سليمة، حاتم صالح الضامن، دار الشروق ، دمشق - سوريا ، سنة 2006م ، ص:32 .
- 7/ الفصحى لغة القرآن، ص: 185 .
- 8/ تاريخ الدعوات إلى العامية و آثارها في مصر، نفوسة زكريا، دار الثقافة، الإسكندرية - مصر، سنة 1956م، ص:208. وانظر: من حاضر اللغة العربية سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق - سوريا ، (ط2) ، سنة 1971م، ص:90.
- 9/ الفصحى لغة القرآن ، ص:187 .
- 10/ العربية الفصحى، عمر فروخ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، (ط1) ، سنة 1961م، ص:97 .
- 11/ الفصحى لغة القرآن، ص: 193 .
- 12/ العربية، دراسات في اللغة و اللهجات و الأساليب، يوهان فك، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، سنة 1400هـ - 1980م ، ص: 231 ، و ما بعدها.

- 13/ الفصحى لغة القرآن ، ص:203 .
- 14/ الفصحى لغة القرآن ، ص: 205 .
- 15/ الفصحى لغة القرآن ، ص: 9، وما بعدها .
- 16/ مشكلات اللغة العربية المعاصرة، مجدي البرازي، مكتبة الرسالة ، عمان – الأردن ، سنة 1989م، ص: 55 .
- 17/ مشكلات اللغة العربية ، محمود تيمور، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، سنة 1956م ، ص:197 .
- 18/ من حاضر اللغة والعربية ، ص: 160 .
- 19/ ديوان حافظ، حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه: أحمد أمين، وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ط3)، سنة 1987م، ص:253 .
- 20/ ديوان حافظ، ص: 253 .
- 21/ ديوان حافظ، ص: 253 .
- 22/ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي، شرح: محمد بهجة الأثري، (ط1)، سنة 1314 هـ ، ج1/ص:40 .
- 23/ تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة – مصر، (ط12)، بدون تاريخ، ص: 169 وما بعدها.
- 24/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 25/ ديوان علي الجارم، علي الجارم، دار كلمات عربية للترجمة و النشر، القاهرة – مصر ، بدون تاريخ، ص:396
- 26/ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج1/ص:44 .
- 27/ ديوان الفجر الصادق، عبد الله عبد الرحمن الأمين، دار البلد للطباعة و النشر، الخرطوم – السودان، (ط1)، سنة 1999م، ص: 89 .
- 28/ ديوان الفجر الصادق، ص: 89 .
- 29/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 30/ تاريخ الدعوات إلى العامية وآثارها في مصر، ص: 179 .
- 31/ ديوان حافظ، ص: 255 .
- 32/ ديوان علي الجارم، ص: 395 .
- 33/ ديوان المتنبي، أبو الطيب المتنبي، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت – لبنان ، سنة 1403هـ - 1983م، ص: 483 .
- 34/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 35/ ديوان حافظ، ص: 254 .

- 36/ ديوان الخليل، خليل مطران، دار الهلال ، القاهرة – مصر ، سنة 1949م، ج3/ص: 31 .
- 37/ ديوان علي الجارم، ص: 396 .
- 38/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 39/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 40/ سورة الشعراء، الآية: 195 .
- 41/ سورة النحل، الآية: 103 .
- 42/ ديوان علي الجارم، ص: 396 .
- 43/ ديوان علي الجارم، ص: 393 .
- 44/ ديوان علي الجارم، ص: 395 .
- 45/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 46/ ديوان الخليل، ج3/ص: 31 .
- 47/ ديوان علي الجارم ، ص: 395 .
- 48/ سنن النسائي، أبو داود سليمان بن الأشعث، ضبطه: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ، سنة 2009م / كتاب مناسك الحج – استقبال الحج ، حديث رقم: 2893 .
- 49/ ديوان الفجر الصادق، ص: 6 .
- 50/ ديوان حافظ، ص: 255 .
- 51/ ديوان الخليل، ج3/ص: 31 .
- 52/ المجالسة و جواهر العلم، أحمد بن مروان الدينوري، تحقيق: مشهور بن حسن، دار بن حزم ، (ط1)، سنة 1419هـ - 1998م، حديث رقم: 2570 .
- 53/ ديوان الخليل، ج3/ص: 31 .
- 54/ ديوان الخليل، ج3/ص: 31 .
- 55/ ديوان علي الجارم، ص: 393 .
- 56/ ديوان علي الجارم، ص: 396 .
- 57/ ديوان علي الجارم، ص: 394 .
- 58/ ديوان علي الجارم، ص: 394 .
- 59/ ديوان حافظ، ص: 254 .
- 60/ ديوان علي الجارم، ص: 394 .
- 61/ ديوان الفجر الصادق، ص: 73 .
- 62/ ديوان الفجر الصادق، ص: 102 .
- 63/ ديوان حافظ، ص: 254 .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .

- 1/ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي، شرح: محمد بهجة الأثري ، (ط1)، سنة 1314 هـ .
- 2/ تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة - مصر ، (ط12)، بدون تاريخ.
- 3/ تاريخ الدعوات إلى العامية وأثارها في مصر، نفوسة زكريا، دار الثقافة، الإسكندرية - مصر ، سنة 1956 م .
- 4/ تاريخ اللغة العربية في مصر، أحمد مختار، الهيئة المصرية للطباعة، القاهرة - مصر ، سنة 1970 م .
- 5/ ديوان حافظ، حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه: أحمد أمين، وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ط3)، سنة 1987 م .
- 6/ ديوان الخليل ، خليل مطران، دار الهلال، القاهرة - مصر، سنة 1949 م .
- 7/ ديوان علي الجارم، علي الجارم، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة - مصر، بدون تاريخ.
- 8/ ديوان الفجر الصادق، عبد الله عبد الرحمن الأمين، دار البلد للطباعة والنشر، الخرطوم - السودان ، (ط1)، سنة 1999 م .
- 9/ ديوان المتنبي، أبو الطيب المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان ، سنة 1403 هـ - 1983 م.
- 10/ سنن النسائي، أبو داود سليمان بن الأشعث، ضبطه: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، سنة 2009 م.
- 11/ العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر ، سنة 1400 هـ - 1980 م.
- 12/ العربية الفصحى، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ، (ط1) ، سنة 1961 م .
- 13/ الفصحى لغة القرآن، أنور المجدي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - لبنان ، سنة 1982 م.
- 14/ فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار النهضة ، القاهرة - مصر ، (ط7) ، سنة 1972 م .
- 15/ اللهجات العربية، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة - مصر، (ط4) ، سنة 1773 م.
- 16/ المجالسة و جواهر العلم، أحمد بن مروان الدينوري ، تحقيق: مشهور بن حسن، دار بن حزم ، (ط1)، سنة 1419 هـ - 1998 م.
- 17/ مشكلات اللغة العربية ، محمود تيمور ، مكتبة الآداب ، القاهرة - مصر ، سنة 1956 م.
- 18/ مشكلات اللغة العربية المعاصرة ، مجدي البرازي ، مكتبة الرسالة ، عمان - الأردن ، سنة 1989 م.
- 19/ من حاضر اللغة العربية سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق - سوريا، (ط2) ، سنة 1971 م.
- 20/ نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت - لبنان، سنة 1973 م.
- 21/ نحو لغة عربية سليمة، حاتم صالح الضامن، دار الشروق، دمشق - سوريا ، سنة 2006 م.